علاقة دولة المماليك بالدولة العثمانية

obeikandl.com

obeikandl.com

علاقة دولة المماليك بالدولة العثمانية

ارتبطت الدولة العثمانية[1] بعلاقات وثيقة مع دولة المماليك، لاسيما وأن الدولة العثمانية بذلت جهودًا كبيرة لمواجهة القوى الصليبية المجاورة لها، وبخاصة الدولة البيزنطية، وهو أمر قوبل بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في الشرق الأدنى ، وزاد من ذلك الشعور الودي المتبادل بين المماليك والعثمانيين تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمور لنك المغولي، مما حتم ضرورة الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر، غير أن هذه العلاقة بين العثمانيين والمماليك لم تستمر على ما يرام، فقد ورد في بعض المراجع أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨ سفارة إلى السلطان برقوق تحمل له هدية وتحذره من تحركات تيمور لنك من تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية[2].

(١) سميت الدولة العثمانية بهذا الاسم نسبة إلى عثمان بن أرطغرل، والذي ولد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ، وهو مؤسس الدولة العثمانية في تركيا.

(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان، ورقة ١٦ مخطوط ، نقلًا عن «العصر المماليكي في مصر والشام» للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (ص٢٦٦).

وإذا كان السلطان برقوق قد أكرم وفادة رسل السلطان العثماني، وأظهر استعداده للتضامن معه لصد خطر تيمور لنك إلا أنه لم يستطع أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين وخطورتهم على مستقبل دولته، فقال: «إني لا أخاف منه (تيمور لنك) فإن كل أحد يساعدني عليه، وإنما أخاف من ابن عثمان»[1].

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق ، إذ أغار بايزيد الأول العثماني على قيصيرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولًا بحماية دولة المماليك، ولكن سرعان ما اعتذر بايزيد عما حدث منه إلى السلطان برقوق، وذلك عندما علم باقتراب تيمور لنك من حدود دولته ، وطلب بايزيد من السلطان برقوق التعاون بين الدولتين لصد خطر تيمور لنك.

ولم تلبث هذه العلاقة بين الدولتين أن ضعفت بسبب أطماع العثمانيين، ففي مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق، أغار بازيد العثماني على أطراف دولة المماليك ، واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارئدة ، ولا شك أن ذلك العدوان كان كافيًا لإفساد العلاقات بالكلية بين دولة المماليك والدولة العثمانية، غير أن خطر تيمور لنك جعل العثمانيين يخطبون ود دولة المماليك،

(١) «إنباء الغمر» لابن حجر العسقلاني (١/ ٣٨٥)..

وعاد بايزيد مرة أخرى يطلب من السلطان فرج بن برقوق إقامة جبهة متحدة في وجه تيمور لنك ، ولكن كبار الأمراء في مصر رفضوا محالفة ابن عثمان، وأرسلوا إليه يذكرونه بعدوانه على ملطية، وهكذا أتيحت الفرصة لتيمور لنك لكي ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على انفراد ، فزحف على دولة المماليك، وأنزل الهزيمة بجيوشها قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠، كما أوقع بالسلطان بايزيد، وأنزل به كارثة أنقرة سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢م ، ووقع بايزيد في الأسر ، على أن وفاة تيمور لنك سنة ١٤٠٥، وتفكك دولته أتاح فرصة لدولة المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التي أنزلها بهما تيمور لنك، وكان أن تجددت علاقات الود بين الدولتين، فأرسل السلطان مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣، لتهنئة السلطان الأشرف برسباي بالسلطنة، ومعها هدية ، وقد ود السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في أيدي قراصنة البحر من الأوروبيين، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباي سنة ١٤٢٦، وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة لحين شهدت مجيء ثالث حملات السلطان برسباي على قبرص سنة ١٤٢٧، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة ، وأسر الملك جانوس لوزجنان.

وعندما ارتقى جقمق عرش سلطنة المماليك (١٤٣٨ – ١٤٥٣) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية، فتبودلت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثماني وجقمق، وقد استمرت هذه العلاقة قائمة بين الدولتين، وعندما سقطت القسطنطينية في قبضة العثمانيين على يد السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م، أقيمت في القاهرة احتفالات رائعة ابتهاجًا بهذا الحدث، فزينت الأسواق والحارات، وأوقدت الشموع في الشوارع والمآذن، ودُقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام.

غير أنه لم يكد يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان، حتى عادوا يوجهون بصرهم نحو الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي مازالت خارج قبضتهم في آسيا الصغرى، والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى – وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلغادر – كانت مشمولة بالحماية المماليكية، مما أفرز هذا الوضع توترًا في العلاقات بين الدولتين، واستمرت المناوشات بينهما حتى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، ونتيجة لكثرة الثورات بين المماليك وكثرة تغيير السلاطين والتخلص منهم بالقتل أو العزل، استطاعات الدولة العثمانية إنزال الهزيمة بالدولة المماليكية في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦، ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ في عهد السلطان سليم الأول العثماني.